The problem of freedom in Bergson

Dr. Ghassan Alaa Al-Din*
Itidal Al-Kaferi **

(Received 12 / 11 / 2023. Accepted 22 / 1 / 2024)

□ ABSTRACT □

This study aims to understand the meaning intended by Bergson when addressing the discussion of the false problems that philosophers face in their lives, described as real problems, which leads them to expend a lot of effort and time fruitlessly. Therefore, Bergson seeks to emphasize the importance of identifying these problems and establishing a suitable approach for dealing with and criticizing them, in order to overcome them and move on to addressing the real problems that deserve attention. Among these false problems for Bergson is the problem of freedom, which is mixed with other problems requiring study and examination to reveal its fundamental elements, nature, and the necessary approaches in reality.

Keywords: Bergson, Freedom, Fake.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Professor. Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Latakia, Syria.**
** **Postgraduate student (PhD), Department of Philosophy, Faculty of Arts and Human Sciences, Tishreen University, Latakia, Syria. itidal.al-kaferi@tishreen.edu**

مشكلة الحرية عند برغسون

د. غسان علاء الدين*

اعتدال الكفيري**

(تاريخ الإيداع 12 / 11 / 2023. قبل للنشر في 22 / 1 / 2024)

□ ملخّص □

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على المعنى الذي يقصد إليه برغسون عندما يتصدى للحديث عن المشكلات الزائفة التي يتصدى لها الفلاسفة في حياتهم بوصفها مشكلات حقيقية الأمر الذي يدفعهم لصرف الكثير من الجهد والوقت من غير جدوى. ولذلك يسعى برغسون لتبيان أهمية الكشف عن هذه المشكلات ووضع منهج مناسب للتعامل معها ونقدها وذلك بغية تجاوزها والانتقال لمواجهة المشاكل الحقيقية التي تستحق العناية والاهتمام . ومن بين هذه المشكلات الزائفة بالنسبة لبرغسون هي مشكلة الحرية التي تختلط بغيرها من المشكلات التي تتطلب الدرس والتمحيص للكشف عن عناصرها الأساسية والوقوف على طبيعتها والطرق التي تتعين لها في الواقع.

الكلمات المفتاحية: برغسون ، الحرية، الزائف.

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **أستاذ – قسم الفلسفة- كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.**

** **طالبة دراسات عليا (دكتوراه)- قسم الفلسفة- كلية الآداب والعلوم الإنسانية -جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.**

مقدمة

ترتبط الفلسفة دون غيرها من العلوم المختلفة ارتباطا وثيقا بتاريخها ، لأنه لا يمكن فهمها والوقوف على نظرياتها وأنساقها من غير أن يكون لدى المشتغلين بها معرفة واسعة وعميقة بتاريخها ؛ ذلك التاريخ الذي يمثل سيرورة الفلاسفة الذين يصوغون نظرياتهم وأنساقهم في أهابها . ومن هنا وفي سياق بحثنا هذا لابد من القول أن الحديث عن المشكلات الزائفة عند برغسون عموماً من بينها مشكلة الحرية التي نتطرق للحديث عنها هاهنا لنبين ماذا يقصد برغسون بمفهوم الزائف؟ ولماذا يقول به اصلا؟ هل من أجل أن يعيد النظر بالعديد من المشكلات التي تناولها الفلاسفة الذين عرضوا فلسفاتهم ، سواء أكانوا سابقين على زمن برغسون أم مجايلين له؟ أم كان هذا هو ديدنه في التعاطي مع المشكلات الفلسفية التي يوجه له مبضع نقده ليفتتها إلى مشكلات لا لكي يسهل حلها فحسب وإنما تكون سهلة التناول والفهم.

والإجابة على هذه التساؤلات أو على النظر إليها بالسياق الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي ينتمي إليه برغسون تدفع بنا لقبول القول بأن الفلاسفة، شاءوا أم أبوا فانهم لابد أن ينتموا إلى المجتمع الذي يعيشون فيه لدرجة يظهر تأثير هذا الانتماء أكبر مما قد يتهيأ لهم ، وهذا هو حال فيلسوفنا الذي أثرت عليه ظروف فرنسا كثيرا إلى حد انه انغمس في معالجة الكثير من المشكلات التي كانت تناقش في تلك الآونة ، وخاصة قضية الحرية التي كان ثمة اختلاف عليها بين المفكرين والفلاسفة الأمر الذي دفع ببرغسون لكي ينظر إليها بوصفها واحدة من المشكلات الزائفة التي يتوجب تحليلها والنظر إليها وفق منهجية مختلفة تحيل إلى فهمها فهما جديدا ومبدعاً في ضوء ما يمكن أن يطلق عليه فلسفة الحياة التي دافع عنها بجسارة وكانت فلسفته برمتها تنطوي تحتها كغيره من الفلاسفة كشوبنهور ونتشه أولئك الذين كانت لهم مذاهب وآراء تغاير تلك التي قدمها برغسون على الرغم من أنهم ينتمون جميعهم لفلسفة الحياة ذاتها.

أهمية البحث وأهدافه

أهمية البحث:

أهمية البحث تكمن في أنه يدفع بنا لأن نكتشف دلالات جديدة لتلك المشكلات الذي طالما اخطأنا في قراءتها والنظر إليها على أنها حقيقية كمشكلة الحرية على سبيل المثال التي لو أتيح لنا منهجا مناسبا لاكتشفنا ما فيها من عناصر ينبغي أن يعاد النظر فيها من منظور جديد .

أهداف البحث:

يهدف البحث بشكل أساسي إلى تسليط الضوء على بعض المشكلات الزائفة عند برغسون التي يخطأ في معالجتها الكثير من الفلاسفة حينما ينظرون لها على أنها مشكلات حقيقية تستحق الدراسة وإنما يتهيأ لهم أنها على هذا النحو وماهي كذلك البتة ، وهذه المشكلات هي جزء أساسي من طبيعة الوجود عينه، ولذلك يتعامل معها الدارسون بجدية وعمق من غير أن يكتشفوا الزيف الذي تنطوي عليه نظرا لأنهم يستخدمون مناهج غير مناسبة لذلك.

منهجية البحث:

في سعينا لإنجاز هذا البحث وجدنا أنه من المناسب أن نستخدم المنهج التاريخي خلال عرضنا لمشكلة الحرية بوصفها مشكلة زائفة بالنسبة لبرغسون، علّنا نتعرف على الآليات والطرق التي يظهر فيها الزيف فيها ويتخفى تحت رداء الحقيقة، كما أننا سنستخدم منهج النقد الفلسفي لنعاين بعض النصوص التي تذهب للتدليل على ما يريد أن يقوله برغسون في هذا الصدد.

المناقشة:

الحرية بوصفها مشكلة زائفة:

تعد مشكلة الحرية بالنسبة ((لبرغسون))* مشكلة زائفة كغيرها من المشكلات الأخرى التي لم تكن لتظهر على هذه الحال لو إننا عرفنا كيف ننظر إليها، وحاولنا أن نقف على الطريقة التي صيرتها مشكلة زائفة. فالحرية إن هي بهذا المقام إلا حالة نفسية ننظر إليها في ضوء مقياس العدد، وهذا يعني أن بالإمكان عدها ما دمنا نستطيع أن نفصلها عن غيرها من الحالات النفسية الأخرى التي تتغاير عنها في الكثير من الخصائص والسمات بما يتوافق وتغير دلالات الألفاظ التي تعبر عنها. ولما كنا نشير إلى تلك السمات ونميز بين حالة وأخرى عن طريق استعمال الكلمات والألفاظ، فهذا يعني أننا ((ننسب إلى الحالات النفسية ما تتصف به الكلمات نفسها من أنها ثابتة، متقطعة، عامة))[1]. وعليه، فمالم يتسنى لنا أن نبيّن زيف تلك الطريقة في التفكير ونمزق حدود هذا الفهم المغلوط سنبقى نفهم مسألة الحرية فهما ناقصا وخاطئا وهو ما يعني أنه لن يكون بمقدورنا أن نقدم حلاً مناسباً لها ما دمنا غير قادرين على وضع تلك المسالة وضعاً مناسباً..

ولكنْ كيفَ يمكنُ لنا أنْ نتجاوزَ هذا الفهمِ المغلوطِ بالنسبةِ لبرغسونْ حتى نقفَ على مشكلةِ الحريةِ ونردها إلى حدودها الأصليةِ التي تتشكلُ منها بما يسمحُ لنا بأنْ نتعاطى معَ تلكَ المشكلةِ خارجَ الأوهامِ التي تسيطرُ على عقولنا فتحرمنا منْ إمكانيةِ أنْ نرى الحقائقُ جليةً وواضحةً . هذهِ الحقائقِ التي يظهرها الوجودُ الذي يرفعُ برغسونْ منْ شأنهِ ويعطيهُ مكانةً عاليةً منْ جهةِ أنهُ ينطوي على وجودينِ كما هوَ الحالُ بالنسبةِ للتجربةِ ذاتها ، وجودٌ حقيقيٌ ووجودٌ زائفٌ ((والوجودُ الحقيقيُ هوَ ذاكَ الوجودِ الذي تشعرُ فيهِ الذاتُ بأنها قائمةٌ بذاتها وأنهُ قدْ خلي بينها وبينَ حريتها . وأما الوجودُ الزائفُ فهوَ ذلكَ الوجودِ الذي فيهِ تميلُ الذاتُ إلى الاندماجِ معَ الناسِ والانغماسِ في المجموعِ والارتماءِ في أحضانِ الآخرينَ))[2].

أيْ أنَ الحريةَ لا تتعينُ وتكتسبُ أبعادها الحقيقةَ ما لمْ يتهيأْ لها وجودٌ حقيقيٌ يكسبها منْ المعاني والدلالاتِ ما لا يستطيعُ الوجودُ الزائفُ أنْ يفعلهُ لأنهُ بالأصلِ يشوهُ نصاعةَ الأنا ويحيلها إلى أنا هامشيٌ مستلبٌ لا يقوى على أنْ يباشرَ أيَ فعلٍ منْ أفعالِ الحريةِ نظرا لارتطامهِ بحاجزِ النسبيةِ وعدمِ مقدرتهِ على تجاوزها، ومنْ هنا بالذاتِ تتبدى صعوبةُ رؤيةِ مشكلةِ الحريةِ على حقيقتها واكتشافُ بنيتها، لأنَ النسبيةَ تخلقُ حالةً منْ الضبابيةِ تحولُ بينَ تلكَ المشكلةِ وبينَ أنْ تظهرَ في أكملَ صورةً في وجودٍ حقيقيٍ لا تحفُ بهِ الأوهامُ ولا تحيطُ بهِ الظواهرُ الزائفةُ الخداعةُ . فمشكلةُ النسبيةِ هنا تعيقُ الأنا منْ أنْ يصلَ إلى المطلقِ ويتعرفُ على أهمِ خصائصهِ ، معَ أنَ المطلقَ البرغسوني يختلفَ عنْ

*** برغسون، هنري: (1859–1941) فيلسوف فرنسي، ولد في باريس من أسرة يهودية، كان في المدرسة الثانوية تلميذا متفوقاً في العلوم، لكنه اختار الفلسفة. تخرج من مدرسة المعلمين العليا على يد أساتذة معروقين، أمثال إميل بوترو. سنة 1909 عين أستاذا في الكوليج دي فرانس، فقضى خمس عشرة سنة يلقي المحاضرات، فذاع صيته وأصبح له معجبون كثيرون حصل على جائزة نوبل سنة 1928. ومن أشهر مؤلفاته: كتاب بعنوان محاولة مباشرة في الوقائع للوجدان 1928على جائزة نوبل للسلام سنة ق 1896، كتاب المادة والذاكرة 1889 ، الفكر المتحرك 1932، ينبوع الأخلاق والدين 1907 ، التطور الخلاق ، الضحك، الطاقة الروحية. 1922، الديمومة والتزامن 1934 المتحرك، ص99. انظر: كمال الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط1، مكتبة لبنان، 2000، ص 99.**

[1] برغسون، هنري، الفكر والواقع المتحرك، ص 21.

[2] وهبة، مراد، المذهب في فلسفة برغسون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط1، 1960.، ص25.

ذاكَ الذي تحدثَ عنهُ فلاسفةِ اليونانَ منْ أنهُ يستطيعُ أنْ يفسرَ كلُ شيءِ دفعةٍ واحدةٍ نظرا لأنهمْ وصلوا إليهِ عنْ طريقِ التجريدِ ، بينما مطلقِ برغسونْ يشبهَ الجزئيُ في كثيرٍ منْ سماته وخصائصه لأنه يتصف بالديمومة التي لاتتي تعبر عن نفسها عن طريق المطلق الذي يضم بين جنباته روح الجزئي التي تتصف بالجدة والفرادة.

ففي رأي برغسون ان النسبية تحرم الانسان من ان يتعرف على المطلق لأنه يبقى أسيراً للطريقة التي يتعامل بها العقل مع قضايا العالم ومسائله المتعددة، لا بل أن النسبية التي هي أم خصيصة للعقل هي التي أعاقت تقدم سير الفلسفة وعلم النفس على حد سواء، لأنها ترتد بالأساس إلى أن ((عقلنا قد تعود عادات ضرورية للحياة العملية، وأن هذه العادات حين ننقلها إلى ميدان التأمل الفلسفي تضعنا أمام واقع تشوه شكله، أو أعيد تشكيله، واقع رتب ترتيبا على كل حال))[3].

فبرغسون يحمّل العقل مسؤولية الفهم المغلوط للكثير من المشكلات التي تعرض امامه لأنه يستخدم طريقة تقف عند حدود رؤية الأشياء الساكنة وتمتنع عن رؤية ما هو متحرك، لأن العقل خلق بالأساس لتمثل هذه الوظيفة التي تنتج الكثير من الأوهام التي لا يمكن النظر لها بوصفها ((مغالطات سفسطائية أو أغاليط استدلالية كالتي يذكرها أرسطو. وإنما هي عيوب في تركيب العقل كأنها نوع من الخطيئة الأصلية تجعلنا نجهل الطبيعة. فإذا تحرر منها العقل البشري استبعد أسباب الخطأ، واستطاع أن يقبل على الطبيعة وهو "لوح مصقول". وهذا هو أول الطريق إلى معرفة الطبيعة وإلى السيادة عليها))[4].

أي إننا لا نستطيع أن نقدم فهماً عميقاً لمشكلة الحرية في نظر برغسون مالم نتمكن من معرفة مقدار الدقة التي نبتغيها عندما نتعامل مع الأشياء والمشكلات التي تعرض لنا في الواقع ونريد أن نقدم معرفة عنها. والدقة التي يقصد إليها برغسون تفصح عن نفسها في اللحظة التي ((نبدأ فيها بإزاحة التصورات الجاهزة، فأتحنا لأنفسنا ان نرى الواقع رؤية مباشرة، ثم جزأنا هذا الواقع عندئذ تجزيئاً يراعي مفاصله، فإن التصورات الجديدة التي يجب أن نحسن صياغتها من أجل التغيير، ستكون في هذه المرة مفصلة على قد الشيء تماماً))[5].

اي أن فقدان الدقة إنما يتأتى في نظر برغسون من شمولها أشياء أخرى يمكن أن تنطبق عليها في العموم، وكأن لكل مسالة هنا تصوراتها الخاصة التي تختلف عن التصورات التي تخص مسالة أخرى. وفي هذا السياق يحاول برغسون أن يستخدم منهج الحدس في فهمه للمشكلات الزائفة وعلى رأسها مشكلة الحرية.

مع أن معنى الحدس عند برغسون يختلف عن المعنى الذي يذهب إليه العديد من الفلاسفة الآخرين ك" شلنج " و" شوبنهاور" مثلاً، وقد عبر عن ذلك بالقول: ((إن الحدس الذي قالوا به إنما كان بحثاً عما هو أبدي، في حين أن ما نهدف إليه نحن إنما هو الاهتداء إلى الزمان الحقيقي فبل كل شيء على خلاف ما أرادوا))[6]. ومن هنا ولأن برغسون لا يعول كثيراً على العقل في إبداع فلسفة تتسم بالجدة والفرادة وتساير الديمومة التي هي عنصر حاسم ورئيسي في فلسفته التي أطلق عليها اسم رؤية الديمومة، لأن الأمر على هذا النحو ، ولأن العقل لم يخلق لأداء هذا الدور الذي يضطلع به الحدس دون غيره، فإن فيلسوفنا قد شرح في كتابة الأول " بحث في المعطيات المباشرة في الوعي" ((فكرة الديمومة التي تمثل نقطة الانطلاق الأساسية والمعنى الجديد لفلسفة برغسون الحدسية، وتضمنه للحرية ومدى

---

[3] **الفكر والواقع المتحرك، ص23.**

[4] **الشاروني، حبيب، فلسفة فرنسيس بيكون، دار التنوير، بيروت، ط1، 2005.، ص 56.**

[5] **الفكر والواقع المتحرك، ص 24.**

[6] **الفكر والواقع المتحرك، ص 25.**

ارتباطها بالكيف والكم والزمان والمكان ، وانتقاداته للمذاهب الأخرى يمثل جهدا كبيرا لخلق فلسفة جديدة تبشر بضرورة اعتماد منهج يتجاوز العقل مثلما يتجاوز الحس، ولفلسفة تجعلنا نتوقف عن طرح بعض الأسئلة لنها غير مجدية وزائفة))[7].

أي أن الحرية بهذا الإطار واحدة من المشكلات الكثيرة التي تدخل في عداد المشكلات الزائفة فيما لو نوقشت من قبل العقل في سياق نسبوية مرفوضة بالنسبة لبرغسون، أما إذا تم التعامل معها في إطار الديمومة والكيف والزمان فأنها تعد مشكلة جديرة بأن تعبر عن ذات صاحبها في ضوء إرادة منتجة ومبدعة ترى الجزئي مطلقا في ذات الوقت الذي يكون فيه المطلق جزئيا مادام يعبر عن نفسه من خلال واقع يجدد نفسه في كل حين. ولذلك نجد أن برغسون وفي محاولة منه ((لنزع القشرة عن لب حقيقة الحرية دعا إلى ضرورة التخلص أو التحرر من التصورات العلمية والتصورات العامية المتأثرة بها، والمتأسسة على عادات عقلية وأخرى اجتماعية، تحكمانها لغة توجه مطلق تفسيراتنا لمكنونات الأشياء))[8].

أي أن القضية الأساسية التي واجهت الفلاسفة في نظر برغسون هي أنهم خلطوا ما بين الزمان والمكان الأمر الذي دفع بهم إلى الوقوع في هذه الأخطاء والملابسات. ولذلك ليس ثمة مخرج لتجاوز هذا المأزق الذي تسبب به الخلط بين الزمان والمكان إلا بتجاوز الاعتقاد الذي يؤمن به بعض الفلاسفة والقائل بأن الحدس يعمل خارج الزمان بينما واقع الحال يدل على خلاف ذلك تماماً. ((فحتى ننتقل من الإدراك العقلي إلى الرؤية، حتى ننتقل من النسبي إلى المطلق، علينا أن لا نخرج من الزمان، وإنما يجب أن نعود إلى الإندراج في الزمان، وأن نلتقط الواقع في تحركه الذي هو ماهيته، إن حدساً يطمح في الانتقال إلى الأبدي دفعة واحدة إنما يبقى في نطاق العقلي))[9].

فماذا نفعل إذا لنتجاوز تلك التصورات التي صاغها الفلاسفة على مر العصور كالجوهر أو الذات أو المعنى، أو الإرادة، ليقدموا من خلالها تصورات للأشياء بعامة يمكن ان تنطبق على عوالم أخرى بنفس الدرجة التي تنطبق على عوالمنا، والبديل عن ذلك، بل الأصدق منها في رأي برغسون ((ميتافيزيقا حدسية حقاً، ميتافيزيقا تتبع ثنيات الواقع، إن ميتافيزيقا كهذه لن تشمل جماع الأشياء دفعة واحدة، ولكنها ستفسر كل شيء من الأشياء تفسيراً ينطبق عليه انطباقاً تاماً، وحده دون غيره))[10].

التفرقة بين العقل والحدس:

في حديثه عن العلاقة بين الحدس والعقل يميز برغسون بين الأفكار التي تنشر نورها في داخلها من زاوية على أخرى، وبين تلك التي تنشر نورها على خارجها فيقول في ذلك: ((يجب أن نفرق إذن بين الأفكار التي تحتفظ بنورها لنفسها نافذة به من جهة أخرى إلى أصغر ركن من أركانها على الفور، وبين الأفكار التي تنطلق أشعتها على الخارج فتضيء منطقة برمتها من الفكر))[11].

ولكن على الرغم من أن برغسون يميل إلى الفكرة الثانية ويدافع عنها إلا أنه يقر بأن الأولى واضحة أكثر من الثانية التي تتسم بالغموض في داخلها. ولهذا نجد أن الفلسفة التي تتميز بالسمة الثانية وهي الفكرة الناتجة عن وجهة النظر

---

[7] مشكلة الميتافيزيقا والعلم في فلسفة برغسون –دراسات وابحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد رقم 10 عدد ديسمبر 2018، ص 288.

[8] المنهج في الفلسفة وإمكانية التجاوز البرغسوني. العربي ميلود، مجلة كلمة العدد 69–خريف 2010.

[9] الفكر والواقع المتحرك، ص 26.

[10] المصدر نفسه، ص 27.

[11] المصدر نفسه، ص 33.

الحدسية تكون ضعيفة عندما يكون هناك حوار او جدال بين فيلسوفين أو أكثر لكل واحد منهما وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر الآخر. وهو يقول في هذا الصدد: ((اصغوا إلى مناقشة بين فيلسوفين يذهب أحدهما مذهب الحتمية ويذهب الثاني مذهب الحرية. إن القائل بالحتمية هو الذي يبدو على حق، قد يكون غراً وقد يكون خصمه صاحب تجربة. وقد يدافع عن رأيه بتهاون على حين أن الآخر ينضح في سبيل الدفاع عن رايه دما وعرقاً))[12] هذا الراي يشبه ما ذهب إليه الفيلسوف الدانماركي كيركيجارد عندما تحدث عن الإيمان والذي يبين فيها أن الإيمان ليس اكثر من أن تؤمن بالمفارقة واللامعقول لأنه عندما يتدخل العقل ويسعى صاحبه للسير وفق مقتضياته ومنطقة فإنه يكف عن الإيمان ، وكأن الإيمان هنا في نظر كيركجارد ينافي العقل ولا يتسق معه.

يبدع برغسون أيما إبداع حينما يقول لنا بصريح العبارة أن الفلسفة تخطأ حين تعتقد بأن المطلق لا يمكن أن يعرف، بينما العكس هو الصحيح في نظره. ولكن في اللحظة التي يتوهم فيها أصحاب المذاهب النسبية أنهم قد قاربوا أن يصلوا إلى المطلق ويدانوه نجدهم يشيرون إليه من خلال الكلمة او ربما يطلقون عليه اسماً، وبمجرد أن يطلقوا عليه هذا الاسم يحسبون أنهم قد صاروا في مواجهة المطلق.

ومن هنا فإنه لا يتوجب على المرء أن يشغل نفسه بالوصول إلى المطلق لأنه في اللحظة التي يكتشف فيها طرقا للعيش وللتعامل مع الحياة المتجددة التي يحيا بين ظهرانيها فإنه يجد نفسه يعانق المطلق مادام هذا الإنسان وكما يعرّفه برغسون بالقول ((حين عرفنا الكائن الحي بانه قدرة على العمل محددة كما وكيفا، فهذا العمل الإمكاني هو الذي يستخرج من المادة إدراكاتنا الواقعية معلومات يحتاج إليها ليسترشد بها، تكثيفات في لحظة من ديمومتنا لآلاف ومليونات وتريليونات الحوادث التي تتم في ديمومة الأشياء ديمومة هي أقل توترا من ديمومتنا بما لا يقاس، عن هذا الفرق في التوتر هو بعينه ما يفصل بين الحتمية الفيزيائية والحرية الإنسانية، وما يفسر في الوقت نفسه ثنائيتهما وتعايشهما))[13].

اي أن الحرية تظهر بشكل جلي وتتكشف مجريات حضورها عندما يتوجه الانسان إلى الواقع من خلال الديمومة التي تتسرب في روح الأشياء جميعها، وهو ما يضاد ما كان يسميها الحتمية التي ينطوي الكون بجملته تحت جناحيها. فالحرية بهذا المعنى تفصح عن نفسها بوصفها مشكلة حقيقية عندما يتم النظر إليها من خلال الواقع الحي، الواقع المعيش وليس من خلال الأفكار والعقائد الجامدة التي تختزل العالم إلى حتمية جامدة لا تتسق البتة مع المنهج الذي يسلك برغسون بموجبه في كل مؤلفاته وكتبه. فالمحك الأول والأخير لأي نظرية هي عند فيلسوفنا الواقع وليس شيء آخر غيره مادام ليس بإمكان نظرية كائنة ما كانت أن تصمد أمام الواقع.

وعليه فإذا كان شوبنهور يرجع الوجود إلى إرادة الحياة، ويرجعه نتشه إلى إرادة القوة، فإن برغسون يرى أننا ((عندما نرجع وجودنا إلى إرادتنا، أو نرجع إرادتنا نفسها إلى الاندفاع الذي تعد امتدادا له، فإننا نفهم ونحس أن الحقيقة الواقعية نمو مستمر، وإبداع دائم لانهاية له. إن في إرادتنا تحقيقا لهذه المعجزة، كل إنتاج إنساني ينطوي على شيء من الاختراع، وكل فعل إرادي يتضمن شيئا من الحرية، وكل حركة للكائن العضوي المتصف بالتلقائية، فهي تضيف إلى العالم شيئا جديداً))[14]. فالحرية تتبدى من خلال فعل الإرادة الذي يتعامل مع الواقع المعيش عبر جملة

[12] **الفكر والواقع المتحرك، ص 33.**

[13] **المصدر نفسه، ص 63.**

[14] **دولوز، جيل، البرغسونية، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1997، ص 7.**

من السلوكات والافعال التي تنبثق فيها الحرية كشلال ماء يتدفق من فوق الصخور ليتابع رحلة مسيره من غير توقف . وهكذا هو واقع الحال بالنسبة للحدس الذي يشكل المنهج الرئيسي الذي يستخدمه برغسون كما يقول: جيل دولوز والذي تتحدد قواعده بموجب ثلاثة أنواع من الأفعال، يتعلق ((الأول منها بطرح المشكلات وخلقها؛ والثاني باكتشاف اختلافات حقيقية في الطبيعة؛ والثالث بإدراك الزمن الحقيقي، وبتبيان كيف ننتقل من معنى إلى الآخر، وما هو " المعنى الأساسي " نقع على بساطة الحدس كفعل معيش))[15].

غير ان هذا الحدس لن يكون حضوره ممكنا إلا من خلال الأنا الذي يظُهر الواقع ويعيّنه على هيئة ما، لا بل أن هذا انا هو الذي يفضي بهذا الحدس نحو تجسيد الإرادة الحرة في الواقع الذي تبدع فيه، أو تخترع أفعالها فيه كما يذهب إليه برغسون في ضوء عاطفتين قد تبدوان متناقضتين في كثير من الأحيان، وكأن هذا التناقض الذي يتحكم بالفرد هو الذي يدفعه للاختيار بين واحدة من تلك العواطف دون الأخرى، وبالتالي يكون الفعل إذ ذاك ناتجا عن إرادة حرة تنقل ذلك الأنا من موقع إلى آخر، ومن عاطفة إلى أخرى. ((انطلاقا من معايشته للعاطفة الاولى، يكون قد تغير حينما تحدث العاطفة الثانية، وفي كل لحظات المداولة، بذلك تتكوّن سلسلة دينامية من الحالات التي تتداخل، ويقوي بعضها البعض الآخر، لتصل إلى إنجاز فعل حر من خلال تطور متبادل))[16] .

ولكن إذا كانت العاطفة تشغل كل تلك الأهمية عند برغسون بوصفها أكثر ارتباطا بالواقع الذي تظهر الحرية وتتعين في اهابه ، فإن العقل يحتل مكانة أقل حضورا بالنسبة له كونه يرى أن العقل يتعاطى مع الأشياء الساكنة دون المتحركة حتى أنه في حال أراد أن يدرس الحركة فإنه يتعامل معها بوصفها سكونا. ولذلك نجد أن العقل لديه هو السبب المباشر للعديد من ضروب المشكلات والأخطاء التي يقع فيها الإنسان عندما يفكر، لأن هذا العقل محكوما بقائمة من الممنوعات التي لا يمكن له تخطيها، إذ كيف يتهيأ له النفاذ إلى جوانية الأشياء بما يسمح له أن يقدم معرفة مقبولة عنها إذا كان لا يغادر حدود التقاليد والأعراف وأنماط العادة، في حين أن كل قراءة عند برغسون يتوجب عليها أن تتفق مع حركية الأشياء وروحها. ومثل هذه القراءة المبدعة لن تكون ممكنة في رأي فيلسوفنا من غير اللجوء إلى منهج الإنكار الذي يوليه برغسون أهمية كبيرة كونه – أي الإنكار– لا يتوقف عند مسألة دون أخرى، ولا نسق دون غيره من بقية الأنساق، وإنما يشير إلى رفض كل العادات العقلية والفلسفات مهما علت مكانتها بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بها ويعتبرونها قضايا أساسية بالنسبة لهم، ففي كل فلسفة شيء من الإنكار المنهجي الذي يعد خطوة أولى على طريق وصول برغسون إلى يقين يعادل ما سعى ديكارت للوصول إليه من وراء رحلة الشك المنهجية التي بدأها في فلسفته. ولم يكن برغسون هو أول من استنّ هذه الخطوة المنهجية لاختبار صحة فلسفة ما وتنقيتها من ضلالاتها وقضاياها الوهمية أو الزائفة، وإنما سبقه إلى ذلك عدد من الفلاسفة انطلاقا من اليونان مرورا بديكارت ثم كانط وصولا إلى فيلسوفنا الذي وسّع تلك القاعدة لتشمل جميع الفلسفات الأخرى من جهة، كما تشمل من جهة ثانية كل المسائل التي كان يفكر بها هو نفسه لا سيما تلك العادات العقلية التي كان يراها مصدرا لقبولنا بجملة من التصورات المسبقة من غير أن نوجه أي نقد لها .

ففي كتابه" المادة والذاكرة" مثلاً، ينكر برغسون ((أن الشعور ظاهرة عارضة، أو أن الذاكرة الخالصة تحفظ في الدماغ، كما يتصور خطأ أصحاب النظرية الفيسيولوجية، ثم هو يرى أن المذاهب الفلسفية إما روحية عقلية أو مادية آلية، فمن

---

[15] **المرجع السابق نفسه، ص 8**

[16] **برغسون، هنري، بحث في المعطيات المباشرة في الوعي ، ص ١٥٨.**

قال إن الوجود روح أنكر المادة وأعتقد أنها وهم من الأوهام، ومن قال إن الوجود مادة أنكر الروح، ومن أثبتها أنكر الارتباط بينهما باعتبار أن لكل منها طبيعته، وبرغسون ينكر كل هذا وذاك أما في كتابه" التطور الخالق" فينكر أن الكائن الحي مجرد مركب من عناصر سابقة، كما يقرر الآليون، أو أن الأنواع الحية ناشئة من أصول متجانسة نمت وتحولت بتأثير القوى الفيزيائية والكيميائية، أو أن التطور يتقدم في خط مستقيم))[17].

إن برغسون لا يتردد في القول بان الدفعة الحيوية التي تتسرب في الأشياء والوقائع وتتلبث روح العالم تظل مهمتها صعبة وعصية على تحقيق أهدافها حينما تصطدم بالمادة، إذ سيكون متعذرا عندئذ من التنبؤ بخط سيرها أو بما ستكون عليه، ولكن على الرغم من ذلك فإن الدفعة الحيوية لا تستسلم للصعوبات التي تعترضها إذا سرعان ما تعمل على تجاوزها والالتفاف عليها لتعبر عن نفسها من خلال مقولة الحرية، وكأن الحرية هنا لا تظهر من غير بذل المزيد من الجهد والإرادة لتجاوز العقبات التي تعمل على إعاقة الدفعة الحيوية من متابعة خطها التطوري. فثمة انطلاقة دائمة تسعى لأن تعبر عن نفسه بشكل تتجسد فيه مقولة الحرية في أكمل صورها. ((إن كل الجدية في الحياة تأتيها من حريتنا. عن المشاعر التي انضجناها، والاهواء التي احتضناها، والأفعال التي قلبناها، وقررناها ونفذناها، وأخيراً ما يصدر عنا، وما هو ذاتنا ومالنا، هذا ما يعطي للحياة مسارها المأساوي أحيانا والخطير عموماً.))[18].

اي أن الحرية لا يمكن وجودها والتعرف على المظاهر التي يسلك الفرد بمقتضاها حتى نقول عنه أنه حر، بمعنى ما على الرغم من أن الحرية ليست واحدة كما هو الحال بالنسبة لأشكالها وصورها التي تفصح عن نفسها من خلال سلوك الذات وافعالها في الواقع، من غير أن يعني ذلك أن الفعل الحر الذي يقوم به الفرد ويشعر بقيمته يمكن أن يُرى من قبل ملاحظ خارجي لا يشعر بما يعتمل في نفس الآخر من إحساس بالحرية. ((فالحرية مثلاً هي عند برغسون مجرد تعبير عن علاقة الذات الحية بالفعل الذي تحققه. وإذا كانت هذه العلاقة هي مما لا سبيل إلى تعريفه ، فذلك لسبب بسيط هو أننا أحرار فعلاً، وما يقبل التحليل لابد أن يكون شيئاً أو موضوعاً، لا حركة أو تقدماً، كما أن ما يقبل القسمة لابد ان يكون امتداداً أو مكاناً، لا دواما وزماناً . فنحن إذن لا نستطيع أن ننكر الحرية إلا إذا جعلنا الزمان والمكان شيئا واحداً))[19].

ففعل الحرية هنا وكما يذهب إليها فيلسوف الدفعة الحيوية يدخل تحت ما يسميه المعاش الذي يتم من خلال منهج التعاطف الذي يراه برغسون أساسياً من أجل أن نتجاوز ما يلجأ إليه البعض من تحليل وقسمة وهي عمليات يستخدمها العقل الذي لا يمكن له البتة أن يكتشف روح الحرية وجوهرها لأن الأخيرة ديمومة ومعايشة ومشاركة فاعلة للوقائع عبر الأنا الذي يلوّن الأشياء بروح متجددة ومبدعة تعيد تشكيلها باستمرار بطريقة جديدة تساير مذهب التطور الذي اولاه برغسون مكانة رفيعة في سياق فلسفته. وقد عبر عن ذلك من خلال تعريفه للحرية بالقول: ((إننا نطلق اسم حرية على علاقة الأنا الملموس بالفعل الذي ينجزه. وهذه العلاقة لا يمكن تحديدها، ويعود ذلك بشكل دقيق لكوننا أحراراً إننا نحلل بالفعل شيئاً ولكن ليس حالات للتقدم، ونجزئ الامتداد وليس الديمومة. أو إذا واصلنا إصرارنا بالرغم من ذلك على التحليل، فإننا نحوّل بشكل لا شعوري حالات التقدم إلى شيء، والديمومة إلى امتداد. وانطلاقاً من ذلك فقط، ندعي تجزئ الزمان الملموس، حيث ننشر اللحظات في المكان المتجانس، وفي مكان الفعل الذي يتحقق نضع الفعل الذي

[17] **عويصة، محمد محمد، هنري برغسون، فيلسوف المذهب المادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص 114.**

[18] **برغسون، هنري، الضحك، ص 56.**

[19] **مشكلة الحرية زكريا إبراهيم، دار الطباعة الحديثة، مصر، ط2، ص23.**

تحقق، وبما أننا بدأنا بشكل من الأشكال بتجميد نشاط الأنا نرى أن العفوية تختزل إلى جمود والحرية إلى ضرورة. فإن كل تعريف للحرية سيعطي الحق للحتمية))[20] .

وفي نهاية المطاف يظهر لنا أن تتبع المفاهيم البرغسونية التي عرض لها في كتبه ومؤلفاته يسلك طريقا وعرا وغير مضمون النتائج لأن برغسون ذاته كان يغير من تلك المفاهيم ويعطيها دلالات مختلفة كلما تغير السياق الذي ترد فيه، وربما تكون هذه النقطة هي ميزة إيجابية في فلسفة برغسون التي تتطور باستمرار وتتغير من غير أن يعني ذلك أنه ليس هناك خطوط عريضة تتميز بها تلك الفلسفة عن غيرها من الفلسفات الاخرى. ولذلك قد لا ينفع أن تؤول أفكار ونظريات برغسون لتخرج عن السياق الذي وردت فيه لأن من شأن ذلك أن يحملها مالم يكن يريد برغسون ان يذهب إليه.. وقد عبر عن ذلك بوضوح فقال: ((إن كل تلخيص لنظرياتي من شأنه أن يشوهها في مجموعها ، ويعرّضها ، في رأيي، بعد ذلك إلى عدة انتقادات، اللهم إلا إذا نفذ الباحث منذ البداية وعاد دائما إلى المبدأ الذي أعده محور مذهبي بأكمله ألا وهو رؤية الديمومة))[21].

أي أن الحرية لا تسود وتنتشر إلا في ما يسميه برغسون الوجود الحقيقي أو الأصيل ، الوجود الحق الذي تنبثق الديمومة من داخلة بشكل تلقائي يفصح عن ذاته من خلال تجاوز الصعوبات المادية التي تعترض طريقة فتعيقه بعض الشيء ولكنها لا تستطيع أن تمنعه من مواصلة مسيرته التطورية التي تندرج المفاهيم الفلسفية البرغسونية في داخلها بشكل مبدع وخلاق . ويظهر لنا أن برغسون وجد صعوبة كبرى في وضع الحدود التي يجب على العقل أن يلتزم بها في فهمه لقضايا العالم والوجود، وبين ما يقوم به الحدس الفلسفي الذي ينطلق في كل مرة من فكرة جديدة تتسم بالجدة والديمومة، ذلك الحدس الذي يمهد الطريق الملائم لتفتح الحرية وانتشارها وحضورها في ثنايا الذات الإنسانية التي اعلى من شأنها كثيرا ((ففي كل مرة يقوم فيها بكتابة أحد مؤلفاته العظيمة، يبدأ من أفكار خاصة تماما، ويحرص على دراسة المشكلة وكأنه لا يعرف عنها شيئاً من قبل. فلا عجب إذن إن كانت نتائجه تبدو لأول وهلة غير متطابقة فيما بينها كل التطابق. ولكنه كان يعتقد ان الحقيقة توجد عند نقطة التقاء هذه اللحظات المختلفة التي نصل إلى كل منها بفكرة خاصة جداً عن المشكلات المحددة))[22]. تلك المشكلات التي كانت تعد نقطة الوصل والالتقاء فيما بينها هي الوجود الأصيل الذي يمكننا وحده من الوقوف على المشكلات الحقيقية بغية دراستها وتقديم حلول لها وتمييزها بالتالي عن المشكلات واستبعادها.

فالحرية بهذا المعنى ماهي إلا ارتباط مع الذات الحرة التي تتفرد بأفعالها وسلوكاتها فلا تكون إلا نفسها من غير أن تندمج مع المحيط الخارجي الذي – في حال فعلت ذلك– فإنه يسلبها خصوصيتها ويفقدها تميزها، وليست هذه الذات المتفردة المستقلة التي لا تنغمس في مع المجموع الغوغائي إلا الذات البرغسونية نفسها التي رفض صاحبها الطقوس والعادات وكل ما هو مألوف من خلال منهج كان قد اطلق عليه أسم (الإنكار)والذي يشبه الشك الديكارتي في بعض جوانبه ، وهو المنهج الذي سمح له أن ينظر إلى كل ما سبقه من أفكار ومعتقدات وطقوس بعين الناقد الحصيف، ليس هذا فحسب بل كان برغسون يستخدم منهجه هذا لنقد كتبه ومؤلفاته وأفكاره . وهو الأمر الذي لاحظة صادق جلال العظم عندما قرأ برغسون وعبر عنه بقوله : ((كل مؤلفات برغسون الرئيسية تعدت بعضها البعض وتجاوزت ما سبقها،

---

[20] **برغسون، هنري، بحث في المعطيات المباشرة في الوعي، 195ص– 196.**

[21] **المذهب في فلسفة برجسون ، ص 77.**

[22] **فال، جان، الفلسفة الفرنسية، من ديكارت إلى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص131.**

فمنذ أن كتب "رسالته في معطيات الوجدان" نجد أن كل كتاب أعقبها قد تعدى الذي قبله في العرض والاتساع و الشمول وفي إدخال آراء متباينة أحيانا مع الآراء السابقة، ولكننا لا نجد أبدا انحرافا جوهريا عن أفكاره الميتافيزيقية الرئيسية كما صاغها منذ البداية، أو رجوعا عنها))[23].

الاستنتاجات والتوصيات:

إن الحرية عند برغسون تعد واحدة من المشكلات الزائفة عندما تناولها من خلال ما أسماه الوجود غير الحقيقي الذي لا تكون فيه الذات هي ذاتها، بل تكون مغتربة عن نفسها . بمعنى آخر تكون غير متوافقة مع نفسها الأمر الذي يحرمها إمكانية أن تبدع الفعل الحر الذي يميزها، لأن مثل هذا الفعل هو وحده الذي يميز ذواتنا ويسم أفعالنا، ولكن المشكلة التي نعاني منها في حياتنا أننا لا نشعر بالحرية في حياتنا اليومية التي نحياها لأن الآلية هي التي تسيطر علينا باستمرار فتسير أفعالنا وفقها ، ونكف عن استبطان الجوانية في داخل لنتعرف على الحرية التي يفترض أن نتميز بها كذوات حرة ومبدعة وخالقة، وقد لخص برغسون خلاصة أفكاره في هذا السياق وكأنه يشرح يومئ لنا أن نتعرف عليه وعلى الطريقة التي يفكر بمقتضاها، لا بل على الإنسان الذي يريده ويدافع عنه ، فذهب إلى القول: إننا ننحني أمام الإنسان الصانع والإنسان العاقل، وهما يميلان إلى الاتحاد، ومن جهة أخرى الإنسان الوحيد الذي ننفر منه إنما هو الإنسان المهذار الذي ليس تفكيره حين يفكر إلا كلاماً.

قائمة المصادر والمراجع

1. برغسون، هنري، بحث في المعطيات المباشرة في الوعي، ترجمة: الحسين الزاوي، المنظمة العربية للترجمة والنشر، بيروت، ط1، 2009 م.
2. برغسون، هنري، الضحك، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948م.
3. برغسون، هنري، الفكر والمتحرك، ترجمة: سامي الدروبي، مطبعة الإنشاء، دمشق، ب، ت.

قائمة المراجع

1. إبراهيم، زكريا. مشكلة الحرية، دار الطباعة الحديثة، مصر، ط2، ص23.
2. جلال العظم صادق، دارسات في الفلسفة الغربية الحديثة، دار العودة، بيروت، ط3.
3. جيل دولوز، البرغسونية، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدارسات والنشر، بيروت، ط1، 1997.
4. الشاروني، حبيب، فلسفة فرنسيس بيكون، دار التنوير، بيروت، ط1، 2005.
5. عويصة، محمد محمد، هنري برغسون، فيلسوف المذهب المادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.
6. فال، جان، الفلسفة الفرنسية، من ديكارت إلى سارتر، ترجمة فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة – د.ت.
7. وهبة، مراد، المذهب في فلسفة برغسون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط1، 1960.

[23] **جلال العظم، صادق، دارسات في الفلسفة الغربية الحديثة، دار العودة، بيروت، ط3، ص 214.**

الموسوعات:

1. كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط1، مكتبة لبنان، 2000.

المقالات:

1. مشكلة الميتافيزيقا والعلم في فلسفة برغسون –دراسات وابحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد رقم 10 عدد ديسمبر 2018.
2. المنهج في الفلسفة وإمكانية التجاوز البرغسوني. العربي ميلود، مجلة كلمة العدد 69–خريف 2010.

Sources and references

Sources:

1. Bergson, Henry, Research on Direct Data in Consciousness, translated by: Al-Hussein Al-Zawi, Arab Organization for Translation and Publishing, Beirut, 1st edition, 2009 AD.
2. Bergson, Henri, Laughter, translated by Sami Al-Droubi and Abdullah Abdul-Daim, Egyptian Book House, Cairo, 1948 AD.
3. Bergson, Henri, Thought and the Move, translated by: Sami Al-Droubi, Al-Inshaa Press, Damascus, b, T.

References:

1. Ibrahim, Zechariah. The Problem of Freedom, Modern Printing House, Egypt, 2nd edition, p. 23.
2. Jalal Al-Azm Sadiq, Studies in Modern Western Philosophy, Dar Al-Awda, Beirut, 3rd edition.
3. Gilles Deleuze, Bergsonism, translated by Osama Al-Hajj, University Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1st edition, 1997.
4. Al-Sharouni, Habib: The Philosophy of Francis Bacon, Dar Al-Tanweer, Beirut, 1st edition, 2005.
5. Awisa, Muhammad Muhammad, Henri Bergson; Philosopher of Materialism, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1st edition, 1993.
6. Fall, Jean, French Philosophy; From Descartes to Sartre, translated by Fouad Kamel - House of Culture for Publishing and Distribution - Cairo - D.T.
7. Wahba, Murad, The Doctrine of Bergson's Philosophy, Dar Al-Maaref in Egypt, Cairo, 1st edition, 1960.

Encyclopedias

1. Kamil Al-Hajj, The Easy Encyclopedia of Philosophical and Social Thought, 1st edition, Lebanon Library, 2000.

Articles:

1. The problem of metaphysics and science in Bergson's philosophy - Studies and Research, Arab Journal in the Humanities and Social Sciences, Volume No. 10, December 2018 issue.

2 .The method in philosophy and the possibility of transcending Bergson. Al-Arabi Miloud, Kalima Magazine, Issue 69 - Fall 2010.